

قراءة في الخطاب الجزائري ما بعد الكولونيالي - رواية "جولة في المقبرة" (على هامش
زيارة غير رسمية) لـ "محمد بومعراف" - أُمودجا

***A reading of the Algerian postcolonial discourse - the novel
A "Jawla Fi Lmakbara" (On the Sidelines of an Unofficial
Visit) by Mohamed Boumaaraf - as a model***

د. ط. فريزة كابين / Fariza KABENE *

(¹) طالبة دكتوراه، جامعة مولود معمري تيزي وزو.

kabenefariza88@gmail.com

تاريخ النشر: 2024/01/29

تاريخ القبول: 2021/12/10

تاريخ الإرسال: 2021/06/23

ملخص: لقد أثبتت الرواية الجزائرية مرونتها، وقدرتها على مسايرة النقد الغربي، استنادا إلى ما توصل إليه الكثير من النقاد والباحثين، خلال مقاربتهم لأعمال روائية جزائرية، حيث ظهرت العديد من التجارب الروائية التي سعت في أغلبها إلى النقض والهدم والتقويض، فقد اتخذ الروائيون الجزائريون من السرد المضاد، سبيلا لتقويض المركز الكولونيالي المهيمن وتفكيك مقولاته وخلخلتها بحثا عن الذات الجزائرية المغيبة، سعيا لتشكيل هويتها. ومن بين التجارب الروائية التي جسدت ذلك رواية "جولة في المقبرة" (على هامش زيارة غير رسمية)، التي تعدّ أول عمل روائي للشاعر والصحفي الجزائري "محمد بومعراف"، إرثا نينا دراستها، نظرا لتوفّر طروحات النظرية ما بعد الكولونيالية فيها.

الكلمات المفتاحية: النظرية ما بعد الكولونيالية؛ التاريخ؛ الهوية؛ الأنا والآخر؛ المهجنة.

Abstract : The Algerian novel has proven its fluidity and its ability to deal with western critics, based on what proponents of literary criticism and researchers have demonstrated, from their criticism and comparison of Algerian novel essays. The appearance of several writings in order to criticize and suggest possible essays.

The Algerian writers wanted to find their identity and their culture by proposing the opposite narration to replace the culture of the occupier which dominates. Among the essays that made it the novel "the walk in a cemetery (away from an unofficial visit), which is the first romantic essay by this

*المؤلف المرسل

algerian poet and journalist Mohamed Boumaâraf, that we have chosen to study in relation to his post- colonial theoretical presentation.

Key- words : Postcolonial theory history identity the ego and the other ; hybridity.

1. مقدمة:

لقد نهضت حركة الاستعمار الأوروبي على تقسيمات تقرّ بتفوق الذات وبأفضليتها على الآخر الشرقي ابن المستعمرات، الذي بدا ملتبسا مفعما بالتصورات المغلوطة التي عملت على إبراز الذات الغربية في ذروة تفوقها وسطوتها، بينما تحاط ثقافة الآخر الشرقي بالزيف وتطمس معالم خصوصيته الثقافية والحضارية وتهان لغته وديانته ووجوده ويسكت صوته.

وهذا ما دفع بأبناء المستعمرات إلى اتخاذ نخط جديد من المقاومة، يستهدف إعادة الموازين إلى الثقافة والهوية المطموسة من خلال كتابات متنوعة، شكّلت تيارا فكريا جديدا يعرف بالنظرية ما بعد الكولونيالية، أخذت على عاتقها تقويض المركز الكولونيالي المهيمن وتفكيك مقولاته، وإعادة النظر في التعاريف المهيمنة للعرق والثقافة واللغة والطبقة، حيث غدا كلّ من «الإبداع في ميدان الأدب والفن وكذلك الدراسات الأكاديمية، منصبا حول توضيح الأنساق الثقافية، التي تحتزنها الثقافات الغربية حول الثقافات غير الغربية وحول الإنسان غير الأوروبي»ⁱ

وهكذا حمل هذا الفكر الجديد استراتيجيات خطاب مضاد مقاوم، يتيح المجال لتمثيل الذات واستعادة تواريخها الضائعة، حيث «تعمد ممارسة الخصوصية الثقافية في الكتابة، إذ تستحضر الشيمات الأدبية التقليدية ويتم استعادة الماضي الذي يعود إلى مرحلة ما قبل الاستعمار القديمة أو المتأخرة على السواء، وإحياء الجماليات التقليدية، والتمسك بقيم الجمال الوطني أو الطائفي أو الديني أو القومي أو العرقي فالأديب

يستعيد الماضي من جراء عنايته بثقافته المحلية، ويحاول إبراز خصوصياتها الأصيلة في مقابل ثقافة المركز الغربي الذي عمل الاستعمار على تكريسها، كنموذج إبداعى فريد وقويم»² والرواية بوصفها نصّاً إبداعياً تخيلياً تقوم باستحضار الواقع، عبر علاقات ورؤى جديدة تعكس في بعض جوانبها علاقات من القوة والهيمنة، حيث نهضت العديد من الروايات الجديدة ما بعد الكولونيالية "بمحاولة استرجاع التراث التاريخي للشعوب المستعمرة؛ لإحياء تراثها وموروثها الأدبي لبعث هويتها الثقافية والفكرية، وهو ما عكسته رواية جولة في المقبرة التي اتّصلت بالعديد من طروحات النظرية ما بعد الكولونيالية. فيا ترى ما هي أهمّ الطروحات التي أفرزتها النظرية ما بعد الكولونيالية ؟. وما مدى تجليها في رواية "جولة في المقبرة" لـ "مُحمَّد بومعراف" ؟. كيف توسّل هذا الأخير بالسرّد سبيلاً لإعادة قراءة المفاهيم المغلوطة وفق تصورات جديدة؟.

2. النظرية ما بعد الكولونيالية: المفهوم والنشأة:

لقد عانت الشعوب المستعمرة من ويلات الاستعمار في شتى المجالات وضمنها المجال الأدبي الذي خضع «لسيطرة مباشرة من الطبقة الحاكمة الإمبراطورية التي كانت وحدها تجيز الشكل المقبول وتسمح بنشر وتوزيع العمل الناتج»³ وبمجيء الاستقلال حظيت هذه الشعوب بالحرية السياسية التي كانت أملها في العيش الكريم بعد طول انتظار، لكن «الاستعمار يعمل على نحو مخاتل، فهو يخترق ما هو أكثر من الدوائر السياسية ويتجاوز مجرّد الاحتفال بالاستقلال»⁴، ويحاول تكريس حمولته الثقافية وهو ما نلمسه من خلال استمرار «وزن العصور القديمة، في الهيمنة على الإنتاج الثقافي في الكثير من أنحاء عالم ما بعد الاستعمار»⁵.

أمام هذا الوضع ظهرت النظرية ما بعد الكولونيالية، التي تعدّ من أهمّ النظريات الأدبية والنقدية التي رافقت مرحلة ما بعد الحداثة؛ «لتبحث في العلاقات الثقافية بين الغرب بوصفه مستعمرا وما يقع خارج الغرب من دول وقعت تحت وطأة الاستعمار»⁶. يعتقد الكثيرون أنّ النظرية ما بعد الكولونيالية، تقتزن بالمرحلة التاريخية التي تعيّنھا البادئة بعد post، والتي تحيل إلى الفترة الزمنية التي رافقت استقلال البلدان المستعمرة، وتحرّرها السياسي من وطأة المستعمر، وهذا ما لم ترحّب به كلّ من "هيلين جيلبرت" و"جوان تومكينز" في كتابهما "الدراما ما بعد الكولونيالية" (النظرية والممارسة) وهو ما يوضّحه قولهما: «وجب على النظرية ما بعد الكولونيالية أن تتجاوب مع ما هو أكثر من مجرد مرحلة ما بعد الاستقلال من زاوية التعاقب الزمني ومع ما هو أكثر من مجرد التجربة الاستطراذية للإمبريالية (...) لا يتعلق الأمر بمجرد تعاقب غائي ساذج يبطل بموجبه الكولونيالية، ويحل محلها وإثما تشتبك ما بعد الكولونيالية مع وتناوئ كلّ من خطابات الكولونيالية، وبنيات القوة والتراتيبات الاجتماعية، تعمل آثار الاستعمار على تشكيل كلّ من اللغة والتعليم والدين والحساسية الفنية بل وتشكيل الثقافة الشعبية على نحو متناسق»⁷.

يتداخل مصطلح النظرية ما بعد الكولونيالية مع الخطاب الكولونيالي بشكل واضح، حيث يشير هذان المصطلحان، اللذان يتعلق كلّ منهما بالآخر إلى حقل من التحليل اتضحت معالمه النظرية والمنهجية في الغرب مع تزايد الدراسات حوله، غير أنّ مصطلح الخطاب الكولونيالي «يشير إلى تحليل ما بلورته الثقافة الغربية في مختلف المجالات، من نتائج تعبّر عن توجهات استعمارية إزاء مناطق العالم الواقعة خارج نطاق الغرب، أمّا مصطلح النظرية ما بعد الكولونيالية، فيشير إلى نوع آخر من التحليل ينطلق

من فرضية أنّ الاستعمار التقليدي قد انتهى، وأنّ مرحلة من الهيمنة تسمى أحيانا المرحلة الإمبريالية أو الكولونيالية قد حلتّ وخلقت ظروفًا مختلفة تستدعي تحليلا من نوع معين⁸.

لقد مثّل النظرية ما بعد الكولونيالية عديد من النقاد على اختلاف انتماءاتهم - على محوري الشرق والغرب - ومنهم "إدوارد سعيد"، الذي يجمع العديد من الدارسين على دوره الفعلي في صياغة اللّبنات الأولى لهذه النظرية من خلال كتابه "الاستشراق"، «نظرا للأدلة القوية التي ساقها على أنّ الشرق كان شيئا من اختلاق الخطاب الغربي، وهو الخطاب الذي صاغ من الوجود الحقيقي والمتخيل لشعوب الشرق صورة خاصّة متخيلة فانتازية إلى حدّ بعيد، (...) تعكس جزءا غامضا ومراوغا من سياسة الاستعمار الأوروبي لبلاد الشرق»⁹، وأسهم بعد ذلك في تطوير هذه النظرية وتعميقها من خلال مؤلفات عدّة من قبيل "الثقافة والإمبريالية" و"صور المثقف" و"تأملات حول المنفى" وغيرها.

نجد كذلك الباحث الهندي "هومى بابا"، الذي تأثر كثيرا بـ "إدوارد سعيد" و"ميشيل فوكو" و"جاك ديريدا"، حيث اهتم بالنصوص التي تكشف هامش المجتمع في عالم ما بعد الاستعمار¹⁰، بالإضافة إلى "غاياتريسيفاك" التي تعدّ أوّل منظرة نسوية في مرحلة ما بعد الاستعمار، حيث حاولت في دراستها للتابع إعطاء تفسير للعلاقة المتوتّرة بين الثقافة الغربية، وثقافة الأقليات التي تعاني من سطوة المركزية الغربية لذلك سعت إلى جعل أصوات هذه الفئة المهمّشة مسموعة¹¹.



كما لا تغفل عن ذكر "فرانز فانون"، الذي يعدّ المبشّر الأول بنظرية ما بعد الاستعمار، التي أسّسها "إدوارد سعيد"، من خلال تطوير أفكار سبقه إليها دارسون كثيرون كـ "جرامشي" و "فوكو" وغيرهم.

لقد ركّز "فرانز فانون" في أعماله، على «دور اللغات الاستعمارية في بناء العقل المستعمر (...)» وكان له تأثيره العظيم على الأجيال السابقة في ثورات العالم الثالث إبان الكفاح من أجل الاستقلال والتحرّر الوطني في الخمسينات والستينات¹².

وتظلّ القائمة طويلة وحافلة بالعديد من الأسماء التي أسهمت بشكل أو بآخر في صياغة لبنات النظرية ما بعد الكولونيالية، وتطويرها، من خلال رفضها للمركزية الأحادية، السياسية والثقافية للمشروع الكولونيالي.

3. طروحات النظرية ما بعد الكولونيالية وتجلياتها في رواية "جولة في المقبرة":

سعت النظرية ما بعد الكولونيالية، إلى فضح وتعرية انتهاكات المركزية الغربية التي تتقوى بسلاح الهيمنة كوسيلة لجعل الشعوب المضطهدة مستعمرة على الدوام، وإن اختلفت أساليب وأشكال هذا الاستعمار الجديد، فطرحت في سبيل ذلك عدد القضايا، وبما أنّ الرواية هي النوع الأدبي المركزي في أدب ما بعد الاستعمار، فهي الأقرب إلى حيثيات الواقع والأقدر على رصد حركية المجتمع بكلّ تناقضاته، بآلامه وآماله، ونقل صراعات الذات الجزائرية المتشظية، التي فقدت علاقتها المتينة بتراثها وتاريخها، ولا تزال تعاني مخلفات الاستعمار الفرنسي وخيباته، خاصّة أنّه سعى جاهداً لخلق "أنا" جزائرية مهمّشة، يلفّها العجز والضعف.

وهو ما دفع بالعديد من الروائيين الجزائريين إلى اتخاذ السرد سبيلا لتقويض المركز الكولونيالي المهيمن، ومحور الآثار التي خلفها وهو ما جسده "محمد بومعراف" في روايته "جولة في المقبرة" (على هامش زيارة غير رسمية)، الذي حاول من خلال شخصية "وحيد" -التي عكست التمزق في الذات الجزائرية التي تعاني غربة المنفى ووحشة الماضي- أن يتوسل بالسرد وسيلة لاستعادة الزمن الضائع، من خلال الوقوف على التراث والتاريخ وإضاءة المناطق المعتمدة في الذات، رغبة في تشكيل الهوية الجزائرية المغيبة التي أثقل كاهلها استعمار فرنسي بحوره وأفراد جزائريون باستبدادهم وأنائيتهم.

نقف إذن ونحن بصدد مقارنة هذه الرواية، على نفحات للنظرية ما بعد الكولونيالية نجملها في النقاط الآتية:

1.3. استثمار التاريخ:

لجأ العديد من أدباء ونقاد النظرية ما بعد الكولونيالية إلى التاريخ، كوسيلة من وسائل مقاومة المركز الغربي المهيمن الذي طالما حاول كتابة تاريخ المستعمر بطريقته الخاصة، وذلك من أجل كتابته وفق ما يتلاءم والمعايير المنبثقة من الحاضر فلم يعد التاريخ مقصودا لذاته إنما «يتم تعاطيه كشكل سردي ثقافي يشتغل على المركز والهامش يهّمه التجريب الفني، مثلما يعنيه اللعب على الأنساق بمقصدية تقويض الوعي الفكري واخلخله الأطر المعرفية للتاريخ، ليصبح في إدخال التاريخ مسرودا في الكتابة توكيدا للجانب الجمالي وتعرية لمستوياته، فضحا وتغريبا وأسطرة وفتنزة».¹³

يتحوّل التاريخ في إطار النظرية ما بعد الكولونيالية إلى وسيلة للحفاظ على التراث الحضاري واستعادة الهوية المستلبة في العالم الكولونيالي، كشكل من أشكال الردّ

على محاولات المستعمر لمصادرة ثقافات وهويات الشعوب الأصلانية، خاصة وأنّ «السرد الكولونيالي دأب على كتابة الوعي الإنساني لمقولات مغلوظة شكّل منها التاريخ والثقافة، عن طريق إنكار دور الشعوب المستعمرة في الإنتاج واحتقار ثقافتها وتشويه تاريخها، والإيعاز بضعفها الجيني عبر العصور»¹⁴، وهو ما يفسّر الأهمية التي يحظى بها عنصر التاريخ، كورقة رابحة تمكن ابن المستعمرات من مقاومة حرب الإبادة الثقافية التي يشنّها المركز الاستعماري الغربي. وهو ما نلمسه في الرواية موضوع الدراسة، إذ قام السارد بمحاكاة الماضي ومقاربة وقائعه وأحداثه بطريقة فنيّة جمالية جعلت العلاقة بين نصّه ووقائع الماضي، لا تقف عند حدود استعادة أحداث تاريخية مضت، إنّما تسعى قبل كلّ شيء إلى إعادة تشكيل الذات الجزائرية، وكشف إدّعاءات الاستعمار الفرنسي.

يقول في معرض حديثه عن المستعمرين الفرنسيين، والثوار الذين تصدّوا للمستعمر الفرنسي وناضلوا بالنفس والنفيس في سبيل الأرض الغالية التي تمّ اغتصابها بالقوة: «هم من خالفوا طرق الطبيعة وجازفوا ببناء أساسهم فوق أجساد لم تزل تنبض بالحياة، كانت نبضات خافتة تسارعت واستحالت غضبا مكبوتا ثمّ انفجرت مرّة واحدة في وجوههم، طردنا الموت منا وطردها هم بالموت، هم فرضوا القانون وطبقناه عليهم، لا حياتان في جسد، في أرض واحدة...»¹⁵.

يتجلى توظيف عنصر التاريخ كذلك، في اعتماد شخصيات جزائرية ترمز للكفاح ضدّ المستعمر مثل شخصية "يوغرتا"، التي عزّزت قوة الانتماء لدى الخالة "لويزة"، إلى درجة أنّها أرادت تسمية ابن شقيقته المتوفية "وحيد" بـ "يوغرتا"¹⁶.

وكذلك شخصية "العربي بن مهدي"، التي ذكرها السارد ليشير إلى تعلّق الحاج "صالح" بها إلى حدّ الهوس قائلا: «اسم العربي كان وأصبح هوسا للحاج صالح منذ مجيئه

للعاصمة وسماعه حكايات الأبطال وانبهاره بهم وأكثر ما أدهشه صبر وشجاعة العربي بن مهيدي أمام جلاديه رغم كل التعذيب»¹⁷، بالإضافة إلى "حسيبة بن بوعلي" والعقيد "عميروش"، "علي لابوانت"، "حميد بوحيمدي"¹⁸ "مصالي الحاج"¹⁹ و"الشيخ الورتيلاني"²⁰.

دلالات التاريخ عميقة في النص الذي بين أيدينا إلى درجة أنّ "وحيد" لم يرض بمهنة "الطب" التي كانت حلم العائلة والقبيلة، إنّما اختار، أن يكون أستاذا للتاريخ يذكر الأجيال الناشئة بتاريخ بلد الشهداء وهذا ما يجعلنا نصرّح بأنّ وقوف السارد على وقائع التاريخ، لم يكن مجرد صدفة أو انصراف بطبيعة الحال، عن الحاضر لصالح الماضي، وإنّما هدفه في ذلك مساعدة المجتمع الجزائري على إعادة قراءة تاريخه واستعادة ثقته في ذاته وإيمانه بنفسه من أجل تجاوز صحّي لمرارة الماضي²¹، يحميه من محاولات الغرب تشتيت كيانه وإحاطته بقيم الضعف والدونية.

2.3. الدفاع عن الهوية الوطنية:

تعدّ إشكالية الهوية من أهم الإشكاليات التي أفرزتها المرحلة ما بعد الكولونيالية خاصة وأن الاستعمار خلّف آثارا وخيمة على المجتمعات المستعمرة، ممّا قسم هويتها في شتّى المجالات، لذلك سعى مثقفو ورّواد النظرية ما بعد الكولونيالية للدّفاع عن الهوية الوطنية والقومية المتشظية، عن طريق «التركيز على التراث بكلّ أبعاده الأدبية والفكرية، بنظامه الاجتماعي، بتقاليده، بقوانينه، بلغاته، بعاداته»²².

إنّ التوسل بالتراث التاريخي خير ما يتسلح به الأصلاحي في سبيل إثبات انتماءه الوطني أو القومي وحماية هويته من الانسلاخ، «ويرتبط التاريخ بالهوية باعتباره السياق

الزمني والحضاري والثقافي الذي ترسم فيه ملامحها، إذ لا يمكن لكلّ ذات أن تتحقق، ولا يمكن من ناحية أخرى استقراؤها إلّا عبر تفاعلاتها مع اشتراطاتها التاريخية (...) لذلك فإنّ التعامل سرديا مع التاريخ، يعدّ في شكل من أشكاله تعاملًا على مستوى الهوية»²³، وبما أنّ الرواية تنطلق من الحاضر المشاكس، المجدّد والمجرب دائما، فهي الأقدر على تمثيل الواقع ورصد حركية المجتمع؛ وهذا ما يمنحها القدرة على تمثيل مجتمعات ما بعد الاستعمار، وعرض تناقضاتها من خلال عرض أبطال مشتتين، يبحثون عن هوياتهم المنقسمة والمتشظية.

يبدو "وحيد" حريصا على الدّفاع على هويّته الوطنية، وحمايتها من الضياع والانشطار الداخلي وهذا ما نلمسه في عنايته بتاريخ بلاده، ورفضه لكلّ أشكال التمييز والتنميط العرقي التي أنتجها النفاق الأوروبي، وهذا ما يوضحه قوله: «الدّماء ليست للتصنيف العرقي بل لتسري في عروقنا مغيّرة مزاجنا إلى الأحسن بهواء نقي من سماء الوطن (...)»، عندما تولد وسط قبيلة معدومة الطموح والمعنى فإنّك ستعاني مثلما يعاني قط أسود صحيح بين قطط بيضاء مريضة...»²⁴.

يبدو "وحيد" في حوارهِ مع الآخر مشدودا إلى هويّته، حريصا على مقومات بلده الثقافية والحضارية، إذ بدا موقفه السلبي منه بوضوح، من ذلك انزعاجه من عودة العجوز الفرنسية المدعوة بـ"فلورنس" إلى الجزائر بعد أن غادرتها ذات يوم مهزومة وزيارتها لبيت خاله؛ من أجل استعادة المطعم الذي كان لوالدها "جون ماري" أيام الاحتلال الفرنسي للجزائر، وهو ما يوضحه قوله: «نعم هي لا تريد سوى استرجاع لحظات السيطرة والتملك، حتى الخال سالم سترتاح أكثر لو رآته في المطعم لتذكّره خادما لدى والدها...»²⁵.

يتدخّل "وحيد" أثناء تبادل العجوز أطراف الحديث مع خاله "سليمان" بغضب قائلاً: "وما شأنك أنت هي مسألة خاصة بنا"²⁶. تخبر العجوز بعدها الحال "سالم" أنّ بعض المسؤولين الجزائريين، أخبر أحد المعمرين بإمكانية رفع دعاوى لاستعادة أملاك قديمة في الجزائر، فيتدخّل "وحيد" مرة أخرى على عجل قائلاً: "مستحيل! أنت مجنونة"²⁷.

يستمر نقاش "وحيد" و"فلورنس" لمدة، وكان وحيد يُشعرها في كلّ عبارة بأنّها عنصر دخيل غير مرحّب به، خاصة وأنّه تحسّس في كلماتها اللطيفة نبرات خبث ومكر، كيف لا وهي لا تزال طامعة في أملاك الجزائر بعد أن فارقتها مكرهة، ولا يزال الحنين إليها وإلى كلّ ما يمت لها بصلة يشدّها بقوة، من ذلك العملة القديمة التي عليها صورة الملك "يوغورطا" التي قامت بالتقاطها، عندما حاصر فريق الشرطة اللصوص الذين كانوا يبيعون الكنوز الأثرية، مسحت الغبار عليها وسألت الشرطي "نور الدين" إذا كان في إمكانها أخذها كذكرى فسارع "وحيد" لانتزاعها منها قائلاً: «ممنوع! هذه كنوز وطنية لا تباع ولا تهدى!»²⁸.

وهكذا عبرت مواقف "وحيد" من خلال الجرأة التي وسمتها، عن تمسكه بهوية وطنه لذلك كان حريصاً على حماية كنوزها، لأنّها في نظره السبيل الأنجع للتصدي لمحاولات تزوير الذات الجزائرية واقتلاعها من جذورها.

3.3. الأنا والآخر:

تعد ثنائية الأنا والآخر من أهمّ الثنائيات، التي حظيت باهتمام النقاد والدّارسين في مجالات عدّة كالفلسفة وعلم النفس علم الاجتماع...، كما نالت حظاً وافراً من



اهتمام مثقفين ورواد النظرية ما بعد الكولونيالية، بخاصة طبيعة العلاقة القائمة بين الأنا والآخر.

إنّ العلاقة بين الأنا والآخر جدلية قائمة في الحياة، فبالأنا يعرف الآخر وبالأخر نحاول فهم الأنا لدرجة أنهما أصبحتا "ذاتين منفصلتين متّصلتين في الوقت نفسه مفترقتان ومتحدثتان (...). فلا تكون الذات إلّا بوجود الآخر وهذه بديهة (ربما باستثناء الذات المطلقة ذات الإله)، والأمر بمجمله يشبه صفحتي ورقة لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر"²⁹.

يدفعنا الخوض في هذه الثنائية، إلى التساؤل عن ماهية كلّ من الأنا والآخر، في الفكر العربي ما بعد الكولونيالي. الحقيقة أنّ مسألة الأنا والآخر في الفكر العربي اتّسمت «بطابع التوتر، يتجلّى أحيانا في التمزق بين ماضي الذات وحاضر الآخر وهو التمزق الذي يعكس وضعية سيكولوجية، وصفها بعض الباحثين بأنّها مأساوية انفصامية، حيث الأنا تشعر بتمزّقها بين الحاضر الذي يبرز فيه الآخر الغربي بصورته المزدوجة، كمتحضر ومستعمر وبين الماضي الذي يقبع هناك في زمن مضى وانقضى»³⁰.

ولاشك أنّ نظرة الآخر التي تلقّاها دلالات الدونية والاحتقار وحتى التخلف خلّفت آثارا نفسية عميقة في الذات العربية المتشظية، التي تتخبط في أسوار الهيمنة التي لا يزال الغرب يقيمها على الشرق لحدّ الآن.

تبرز شخصية "وحيد" في الرواية بصفتها "أنا" مشتّتة وضائعة، عاشت تمزقا بين ماض حرمه حنان الأمّ وعطفها وحاضر سلبه حبّ الوحيد "نبيلة"، فيقرّر على إثر ذلك مغادرة الوطن، الذي كان قبرا لكلّ آماله، باحثا عن بلاد جديدة لعلّها تحبّي له مستقبلا مشرقا.

تنبني علاقة الأنا بالآخر في رواية "جولة في المقبرة" على نوع من النفور، فهو لا يتقبّل وجود الآخر الذي يختلف عنه في الثقافة والانتماء، خاصة وأنّ الشعب الجزائري ذاق مرارة التعسف والظلم على يد المستعمر الفرنسي لسنوات طويلة، فانطبع ذلك في الذاكرة القومية، وهذا ما يجعل الأنا تعيش حالة من التوتر في علاقتها بالآخر، وهي تستحضر الماضي الأليم الذي ظلت مخلفاته قابعة في الأذهان، والحال أنّ الآخر (الغرب) لا يتوارى لحظة عن إلحاق الضرر بالشرقي، ابن المستعمرات بوجوه جديدة وسياسات استعمارية أشدّ خبثا وخطورة؛ فقد زرع بذور الحقد والكراهية بين أبناء أمة واحدة، وسلاحه في ذلك شعار "فرّق تسد"، وما يزال يحصد ثمار ما زرعه لحدّ الآن فقد سعى جاهدا منذ أن وطأت أقدامه ربوع الجزائر، لضرب أواصر وحدة الأمة الجزائرية من خلال خلخلة علائقها المتينة وتشيتت شملها، وخير ما نستشهد به على ذلك هو قضية الصراع بين الثقافة الأمازيغية والثقافة العربية، والدليل على ذلك في نص "جولة في المقبرة" هو رفض تسميات تاريخية أمازيغية، فقد أرادت الحالة "لويزة" تسمية "وحيد" بـ"يوغورطا" نظرا لتمسّكها بالقضية الأمازيغية، لكنّ الموظف الإداري رفض ذلك قائلا: «ممنوع سيدي هاته الأسماء ممنوعة»³¹.

يتمثّل الآخر الذي يقف "وحيد" في مواجهته في العجوز الفرنسية التي تجمعها بها الصدف في كلّ مرة، فقد بيّنت مجريات الأحداث أنّه لا يطيق وجودها غير مرتاح لعودتها، حيث التقى بها في مركز الشرطة أثناء زيارته لصديقه "نور الدين"، فما إن لمحتة حتى نادته قائلة "ولدي"³² فاستفسر "نور الدين" من "وحيد" عن هويتها فأجابه بقوله «أظنها من الأقدام السوداء جاءت زيارة لما تظنه وطنها وأرضها»³³.



يقول "وحيد" في موضع آخر معبرا عن تذمره وسخطه: «تبا لهذه العجوز الخبيثة دائما تلمح لشيء غير بريء لكن دون التصريح بنية سيئة لماذا عادت أصلا؟...»³⁴. يبرز الآخر كذلك في أعضاء الجمعية اليهودية "ايريز شلاينو"، الذين عرّفتهم والدّة "كلارا" بـ "وحيد"، لكنه رفض صداقتهم قائلا: «لا أريد تلك الصداقة... أنتم لا تفهمون شيئا! ليس مع هؤلاء اللطف لقد قتلوا إخوتي!»³⁵.

يصرّ وحيد إذن على رفض الآخر، لأنّ الثقافة الإسرائيلية شكّلت مصدر قلق جديد له، فما إن تذكر ما فعله الإسرائيليون بإخوانه الفلسطينيين حتى رفض أية صلة تربطه بهم، وإن كلفه ذلك خسارة حبّ "كلارا".

4.3. تفكيك الخطاب الاستعماري:

تهدف النظرية ما بعد الكولونيالية إلى تفكيك الخطاب الاستعماري وتعريته من خلال إعادة النظر في تاريخ الاستعمار، بغية إعادة الاعتبار لمستعمرات عانت طويلا من الهيمنة الأوروبية وذاقت ويلات الحروب ووحشية المستعمر، الذي طالما تحقّى وراء ستار التنوير؛ لذلك عملت على "تفكيك الحدود والمحدّدات التي تقوم على الهيمنة، والتي تخلق علاقات قوة غير متكافئة تقوم على تلك التقابلات الثنائية من قبيل "نحن وهم" و"العالم الأول" والعالم الثالث"، و"الأبيض والأسود" والمستعمر والمستعمر (...). وسعت إلى الخلخلة المستمرة للسلطة السياسية والثقافية للإمبريالية"³⁶؛ بغية إعادة الحق إلى الغريب المستبعد «حيث ظهرت نصوص أفادت من السرديات الغربية لكنها ناهضت الخطاب الغربي المتمركز حول الذات الغربية وكشفت التحيز الحضاري في الخطاب الكولونيالي»³⁷، وهو ما يبرز أهمية الكتابة ودورها في المعركة الحاسمة ضدّ الآخر، من أجل مراجعة مفاهيمه

المغلوبة التي سعى دائماً إلى فرضها على الأصلائي، فاستعاد صوته بعدما سُكِّت لفترات طويلة.

يتضح من خلال أطوار المعالجة التحليلية لهذه الرواية، أنّ السارد يحاول تعرية خطاب المستعمر الفرنسي من خلال فضح جرائمه -إبان احتلاله للجزائر- كمجزرة قبيلة العوفية عام 1832، التي تم فيها إبادة حوالي اثني عشر ألفاً فرد جزائري ظلماً كعقوبة رادعة متحضرة، بعد اتهام بعض أبنائها بعدم احترام القانون وسرقه متاع.

لم تقف وحشية الاستعمار الفرنسي عند هذا الحدّ، بل إنّ الجنود الفرنسيين قاموا كذلك بسرقة الحلي والمجوهرات من أيادي النساء والفتيات ورقابهن وبيعها في باب عزون، وقطعوا رأس شيخ القبيلة³⁸.

وكان من بين سكان القبيلة الذين لاقوا حتفهم، الشاب "عامر" الذي كان متيمّاً بحبّ فتاة تدعى "زينب" إذ كان يرسل لها دائماً أشعاره راجياً حبّها، منتظراً بشغف اليوم الذي يشهد وصالهما، فكان للمستعمر الفرنسي شرف تنظيم لقاءهما الأوّل والأخير. يقول السارد كاشفا الستار عن وجه المستعمر: «جاء الموعد بتخطيط من طرف غير مدعو لم تبت زينب في أحضان عامر ومات الجميع ذبحوا واختلطت دماؤهم، وربما كانت دماء عامر وزينب أكثر ما اختلط منها، أو ربما أُلْقِيَتْ جثته قرب جثتها كلقاء أخير»³⁹.

يعرض الآخر إذن في صورة المستعمر وما يمارسه من أشكال قهر وألوان تعسف بسكان البلاد الأصليين من الأهالي، ويجسّد من خلال بعديه الواقعي والرمزي فشخصية مدير المدرسة التي يعمل بها "وحيد" هي امتداد للمشروع الكولونيالي بوجهه الجديد، إذ



يستشعر القارئ فيه صورة للمستعمر، الذي يريد أن يفصل الجزائر عن تاريخها؛ مثلما يفصل هو بين مادّة التاريخ التي عهد لـ "وحيد" بتدريسها ومادة الجغرافيا التي أوكّلها "لنبيلة"⁴⁰، وكأنّ فصل هاتين المادّتين هو ما سينذر بفراق الحبيبين "نبيلة" و "وحيد" المقدّر لهما أن ينفصلا ولم يرتبطا بعد.

5.3. الهجنة:

تعدّ الهجنة من أهمّ المصطلحات التي أفرزتها مرحلة ما بعد الكولونيالية وتشير إلى خلق أشكال متعدّية الثقافات (...). وتتخذ أشكالا عديدة لغوية، ثقافية عرقية... الخ⁴¹. تفرض الهجنة نوعا من التعايش بين الثقافات واللّغات والأعراف، دون أن تلغي إحداها الأخرى أو تنقضها، لذلك فهي لا تدين لنسق واحد ولا ترتبط بقيمة ثقافية ثابتة، بل تشكل تلاقحا وتداخلا بين العوالم وتنزاح عن كلّ ما من شأنه أن يوصل إلى الصّدام، وعبر الهجنة يدعوننا "إدوارد سعيد" إلى أن نقيم بين الثقافات ونرفض سياسات الهوية وندين صراع البشر القائم على الأصول والأعراف والانتماء الجغرافي⁴².

فالهوية من هذا المنطلق تدين تقوقع الذات على نفسها في فردية نرجسية وإثما تقرّ بتفاعلها وتواصلها مع الآخر، بشكل تنتفي من خلاله كلّ أشكال التمايز.

فالهجنة على هذا الأساس ليست سلبية بالمعنى الكلّي للكلمة، إنّما تشكّل في كثير من الأحيان مصدر قوّة وسند للذات من خلال إنتاج خطابات مضادة تستقرّ الآخر، إذ نقف في الرواية على هجنة لغوية في عدّة مواضع، أكّدت استعارة الكاتب للمعجم اللّغوي الخاصّ بالمستعمر، للتعبير عن قضايا الهوية، فتشكّل بذلك مزيج بين لغة عربية فصحي وعامية، ولغة فرنسية.

تقول "لويزة" متهمه الحاج صالح بقتل أختها: «ألا يكفيني أنك قتلت أمه أيها المجرم تريد تسميته بمزاجك أيضا؟ Criminel !»⁴³، وتقول الطفلة "وريدة" مخاطبة عمّها "وحيد" «إيه عمو نعلمك Parce que je t'aime»⁴⁴، ثم تحببه عندما سألها إذا كانت تعرف "حسيبة بن بوعلي":
« Bien sûr عمو ! قتلوها في القصة مع Le p'tit Omar وعلي لا بوانت»⁴⁵.

غير أنّ التسليم الكلي بفرضية الهجنة قد ينتج عنه في أحيان كثيرة ذوبان الذات الجزائرية وانصهارها التامّ في نسيج الآخر، فالمستعمر وإن غادر أرض الجزائر إلّا أنّ مظاهر هيمنته سارية لحدّ الآن، من خلال لغته التي يحاول إرساءها محلّ اللغة القومية، وهو ما شهدناه مع الحالة "لويزة" التي كانت تصرّ على تعليم "وحيد" اللغة الفرنسية والطفلة "وريدة" التي تحدّث اللغة الفرنسية بطلاقة، بل إنّها طغت على لغتها العربية.

4. الخاتمة:

تجلت طروحات النظرية ما بعد الكولونيالية في نص "جولة في المقبرة" بشكل واضح، فقد استثمر "مُحمَّد بومعراف" استراتيجيات الكتابة ما بعد الكولونيالية، من أجل تشكيل خطاب مضاد يزيل من خلاله الستار عن الوجه الآخر للمستعمر ويقدم وجهة نظر المقهورين من أبناء أمتهم؛ من خلال الوقوف على ماضيهم الذي ولى لكنّه ظلّ راسخا في الذاكرة الجمعية، لذلك اتسمت تجربته الروائية بالراهنية، من خلال وعيه بالوضع الذي آلت إليه الذوات الجزائرية بعد جلاء المستعمر الفرنسي فتوسّل بالسرد

سبيلا لفضح المركز الكولونيالي الفرنسي وحمولته التاريخية والثقافية وعمل على إعادة الثقة في الماضي، محاولة منه لربطه بالحاضر.

نقل لنا الروائي من خلال شخصية "وحيد" و"فلورنس" قضية الصراع بين الشرق والغرب، بين حضارة تحاول فرض هيمنتها بشتى أشكال النفاق والإغراء، وحضارة أخرى تحاول التشبث بخصوصيتها الثقافية المحلية، حيث عزّزت مواقف "وحيد" السلبية من العجز الفرنسية، قوة الانتماء لوطنه، وعكست في مجملها محاولات الذات لإثبات وجودها، من خلال التمسك بالهوية الوطنية والقومية، حتى لا تذوب في نسيج الآخر.

5. الهوامش:

¹ حياة أم السعد وآخرون: العين الثالثة، تطبيقات في النقد الثقافي وما بعد الكولونيالي، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2018، ص17.

² المرجع نفسه، ص19.

³ ينظر: بيل أشكروفت وآخرون: الردّ بالكتابة، النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة، تر: شهرت العالم، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2006، ص24.

⁴ جوان توميكنز وهيلين جيلبرت: الدراما ما بعد الكولونيالية، النظرية والممارسة، تر: سامح فكري، مركز اللغات والترجمة، القاهرة، مصر، د ط، 2000، ص3.

⁵ بيل أشكروفت وآخرون: الردّ بالكتابة، النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة، تر: شهرت العالم، ص24.

⁶ سعد البازعي وميجان الرويلي و: دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط3، 2002، ص33.

⁷ جوان توميكنز و هيلين جيلبرت: الدراما ما بعد الكولونيالية، النظرية والممارسة، تر: سامح فكري، ص3.

⁸ ينظر: المرجع نفسه، ص158.

⁹ بيل أشكروفت وآخرون: الإمبراطورية تردّ بالكتابة، آداب ما بعد الاستعمار النظرية والتطبيق تر: خيري دومة، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2005، ص9.

¹⁰ ينظر: ديفيد كارتير: النظرية الأدبية، تر: باسل المسألة، دار التكوين، دمشق، سوريا، ط1، 2010، ص128.

¹¹ ينظر: حفناوي بعلي: مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007، ص92.

قراءة في الخطاب الجزائري ما بعد الكولونيالي - رواية "جولة في المقبرة" (على هامش زيارة غير رسمية) لـ "مُجد بومعراف" -
أُمّوذجاً فريزة كابين

¹² بيل أشكروفت وآخرون: الإمبراطورية تردّ بالكتابة، آداب ما بعد الاستعمار: النظرية والتطبيق، تر: خيرى دومة ص10.

¹³ نادية هناوي سعدون: رواية التاريخ، معاينة في التمثيل الثقافي، مجلّة فكر الثقافة، كلية التربية قسم اللغة العربية الجامعة المستنصرية، بغداد، العراق، عدد 22، 5 جوان 2019.

¹⁴ حياة أمّ السعد وآخرون: العين الثالثة، تطبيقات في النقد الثقافي وما بعد الكولونيالي ص78.

¹⁵ مجد بومعراف: جولة في المقبرة، على هامش زيارة غير رسمية، دار الجزائر تقرأ، الجزائر، ط1 2017، ص10.

¹⁶ ينظر: المصدر نفسه، ص44.

¹⁷ ينظر: المصدر نفسه، ص74.

¹⁸ المصدر نفسه، ص107.

¹⁹ المصدر نفسه، ص207.

²⁰ المصدر نفسه، ص137.

²¹ حياة أمّ السعد وآخرون: العين الثالثة، تطبيقات في النقد الثقافي وما بعد الكولونيالي ص169.

²² المرجع نفسه، ص18-19.

²³ ينظر: هشام بن الهاشمي: إدوارد سعيد: من دنيوية النقد إلى هجنة الهويات، مجلّة الأزمنة الحديثة، 2014، عدد 8 ص156.

²⁴ "جولة في المقبرة"، ص91.

²⁵ المصدر نفسه، ص188.

²⁶ المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

²⁷ المصدر نفسه، ص189.

²⁸ المصدر نفسه، ص201-202.

²⁹ حسين العودات: الآخر في الثقافة العربية من القرن السادس حتى مطلع القرن العشرين، دار الساقى للطباعة والنشر لبنان، ط1، 2010، ص19.

³⁰ نادر كاظم: تمثيلات الآخر، صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط1، 2004، ص15.

³¹ "جولة في المقبرة"، ص44.

- 32 المصدر نفسه، ص 171.
 - 33 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
 - 34 المصدر نفسه، ص 174.
 - 35 المصدر نفسه، ص 195.
 - 36 جوان توميكنز و هيلين جيلبرت: الدراما ما بعد الكولونيالية، النظرية والممارسة، تر: سامح فكري، ص 4.
 - 37 حياة أم السعد وآخرون: العين الثالثة، تطبيقات في النقد الثقافي وما بعد الكولونيالية ص 159.
 - 38 ينظر: "جولة في المقبرة"، ص 122-123.
 - 39 المصدر نفسه، ص 124.
 - 40 ينظر: المصدر نفسه، ص 92.
 - 41 ينظر: بيل أشكروفت وآخرون: الردّ بالكتابة، النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة تر: شهرت العالم، ص 328.
 - 42 ينظر: هشام بن الهاشمي: إدوارد سعيد: من دنيوية النقد إلى هجنة الهويات، ص 156.
 - 43 "جولة في المقبرة"، ص 45.
 - 44 المصدر نفسه، ص 117.
 - 45 المصدر نفسه، ص 108.
- قائمة المصادر والمراجع:**
- (1) الكتب:**
- بيل أشكروفت وآخرون: الردّ بالكتابة، النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة تر: شهرت العالم، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط 1، 2006.
 - جوان توميكنز وهيلين جيلبرت: الدراما ما بعد الكولونيالية، النظرية والممارسة، تر: سامح فكري مركز اللغات والترجمة، القاهرة، مصر، د ط، 2000.
 - حسين العودات: الآخر في الثقافة العربية من القرن السادس حتى مطلع القرن العشرين، دار الساقى للطباعة والنشر لبنان، ط 1، 2010.
 - حفناوي بعلي: مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، منشورات الاختلاف، الجزائر ط 1، 2007.
 - حياة أم السعد وآخرون: العين الثالثة، تطبيقات في النقد الثقافي وما بعد الكولونيالي، دار ميم للنشر، الجزائر، ط 1، 2018.

قراءة في الخطاب الجزائري ما بعد الكولونيالي - رواية "جولة في المقبرة" (على هامش زيارة غير رسمية) لـ "مُجد بومعراف" -
أُموذجا فريزة كابن

- ديفيد كارتر: النظرية الأدبية، تر: باسل المساملة، دار التكوين، دمشق، سوريا، ط1 2010.
- سعد البازعي وميجان الرويلي و: دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط3 2002.
- مُجد بومعراف: جولة في المقبرة، على هامش زيارة غير رسمية، دار الجزائر تقرأ، الجزائر، ط1 2017.
- نادر كاظم: تمثيلات الآخر، صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط1، 2004.

(2): المجالات:

- نادية هناوي سعدون: رواية التاريخ، معاينة في التمثيل الثقافي، مجلّة فكر الثقافة، كلية التربية قسم اللغة العربية الجامعة المستنصرية، بغداد، العراق، عدد 22، 5 جوان 2019.
- هشام بن الهاشمي: إدوارد سعيد: من دنيوية النقد إلى هجنة الهويات، مجلّة الأزمنة الحديثة، المغرب، عدد 8، 2014.